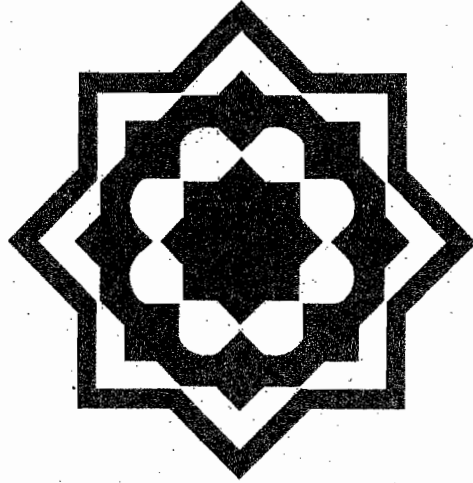


انتشار الإسلام في مملكة مالي

م.م. بهاء موسى حبيب
كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة





المـلـخـص العـربـي

يـعـتـبـر دـخـول الدـيـن الإـسـلامـي فـي أفـرـيـقـيا (جـنـوب الصـحـراء الكـبـرى) مـن الأـحـداث المـهـمـه فـي تـارـيـخ القـاره الأفـرـيـقـيـه. و مـمـا مـيـز الإـسـلام و المـسـلـمـيـن عـن غـيـرهم مـن الوافـديـن الـى القـاره فـي نـظـر الأفـارقـه هـو ايجـابـيـه المـسـلـمـيـن باعـتـبـارهم أصـحاب رسـالـه، أنـهم لم يؤمـنوا يـومـاً بـنـظـريـه تـفـوق الأجنـاس أو نقـائـها عـلى غـرار ما جـاء به المـسـتـكـشـفون و المـسـتـعـمـرون الأورـوبيـون فـيـما بـعد، بـل أن الإـسـلام جـاء بـأسـاسـيـه فـي الدـعوـه الـى المـساوـاه بـصـرف النـظـر عـن اللـون أو الجـنـس، الأـمر الـذي أعـطى المـسـلـمـيـن مـيـزه مـتـقـدمـه دـفـعت الـى تـمـازج و تـزاوج المـسـلـمـيـن القـادـمـيـن الـى سـكان القـاره، بـل نـجـد فـي فـتـرات مـتـأخـره مـن تـارـيـخ العـلاقـات بـيـن العـرب المـسـلـمـيـن و الأفـارقـه أن السـكان الأصـليـيـن تـمـكـنوا بـعد اعـتـناقهم الإـسـلام مـن إدارـه شـؤنهم بـأنـفـسهم فـي إـطار عـلاقـات مـتـناغمـه قائـمه عـلى الاحـترام المـتـبـادل. و قد تـطـورت هـذه العـلاقـات عـبر السـنـيـن الـى انـشـاء دول و مـمـالـك إـسـلامـيـه أفـرـيـقـيـه أصـيلـه تـدير نـفسـها فـي ظـل عـقـيدـه إـسـلامـيـه مـوحـده، انـضـوت تـحت لوائـها قبـائل عـربـيـه إـسـلامـيـه انـتـقلت الـى القـاره سـواء مـن شـرقـها أو شـمالـها. و تـناوـلت الدـراسـة المـعـوقـات الـتي أعـاقـت أنـشـار الإـسـلام و مـنـها تـعـدد المـذاهـب الوافـدة عـلى غـرب أفـرـيـقـيا، مـمـا سـبـب نـوع مـن الحـيرة و التـشـتـت لـدى الأفـارقـه.

المـدخـل

وُجـدت مـفاهـيـم خـاطئـة كـثـيرة عـن تـارـيـخ الإـسـلام و أثـره فـي هـذا الجـزء مـن أفـرـيـقـيا دـيـنـياً، واجـتمـاعـياً، وثـقافـياً، وحضـاريـاً، و هي مـفاهـيـم لـها دوافـع مـخـتـلفـة، وجـوانـب عـدة أتت مـن قـيـل بـعض المـتـقـفـين الغـربـيـيـن و أبـناء المـنـطقـة و غـيـرهم مـن الـذين تـأثـروا بأولئـك، وبـخـاصـة المـتـغـربـيـن مـنهم وإلا الدـيـنـيـيـن و المـسـيـحـيـيـن، وكـذلك دـعاة الزنجـيـة، و بـعض عـلمـاء الأثـار الأفـرـيـقـيـيـن، و القـومـيـيـن العـرب.

إن صـورة انـتـشـار الإـسـلام عـامـة قد شـوّهت مـن قـيـل كـثـير مـن الدارسـيـن، فأبـرزت السـلـبيـات بـل بـولـغ فـيـها، و طـمـست الإيجـابـيـات؛ و لـهـذا لا بدّ مـن إبراز أسـباب التـشـويه و معـالـجـتها، وإعـادة رـسم صـورتـه عـلى ضـوء مـفاهـيـم و تـصـوـرات أكـثـر استـقامـة و عدلـاً (١)، وبـخـاصـة فـي ضـوء المـسـتـجـذات العـلمـيـة و البـحـثـيـة المـتـعلـقـة بـتـارـيـخ المـنـطقـة و حضـارتـها، و أثر الإـسـلام البارز فـيـها، و كذلك حـاجـة بـعض المـصـادر الأفـرـيـقـيـة الـتي تـناوـلت هـذا التـارـيـخ إلـى إعـادة فـحص و مـقـارنـة و تـحـقـيـق عـلمي؛ بسـبـب كـون المـطـبـوع مـنـها مـن نـسخـة و حـيدة لـيـسـت الأصـليـة.

حـتى إن قـضـيـة انـتـشـار الإـسـلام فـي غـرب أفـرـيـقـيا لا تـجـدها تـدرّس إلـا فـي إـطار السـلـطة الغـالبـة، و القـوـة الظـاهـرة، و بـها و مـعـها؛ فـحـسب هـذه المـفاهـيـم يـبـسـط الإـسـلام سـلـطـانـه، و تـذاع فـي النـاس تـعـالـيـمـه، و تـنـتـشـر بـيـنهم رايـاتـه إذا كـانت لـه دولـة تـرعاه، و فـي غـيـاب مـثل هـذه الدولـة يـغـدو النـكـوث عـن الإـسـلام إلـى الدـيـانات النـقـلـيـديـة هـو البـديـل المـائـل، و فـي أحـسن الفـروض تـكون المـزاوجـة بـيـن الإـسـلام و تلك الدـيـانات هـي الطـريق إلـى تـخـلـيـط يُبـقي مـن الإـسـلام اسـمـه، و يـمحـو مـعـالـمـه و أثـره» (٢).

فـلـيـس مـن الصـواب ما قالـه د. زبـادـيـة: «و تـتـفـق الروايـات عـلى أن الإـسـلام ما كان يـتمّ حـيـن يـعلن الأمـير، أو رـئيس القبـيـلة، أو النـبـيـل فـي عـشـيرـته إـسـلامـه فـيـتـبـعه جـمـيـع أفـراد رعيـتـه» (٣).

فـكم مـن مـلك أسـلم شـعبـه و هو لـمّا يـسلم؛ كـما فـي حـال غـانا مـع و جـود عـدد كـبـير مـن المـسـلـمـيـن و المـسـاجـد و الوزـراء فـي عاصـمتـها، بـل نـصف المـديـنة كان خـاصـاً بالمـسـلـمـيـن، و كـمـديـنة «جـني» الـتي حـشد مـلكـها عـدداً كـبـيراً جـداً مـن العـلمـاء لـيـعلن إـسـلامـه بـيـن أيـديهم (٤).



وكم ملك أسلم دون شعبه؛ وكم ملك كان يتردد في اعتناق الإسلام خوفاً من شعبه الذي لمّا يسلم، أو لا يعلن ذلك حتى يضمن انقيادهم(٥)؟ كل ذلك لا يتعارض أو يقلل من أهمية إسلام الملك وما يزيده من قوة الانتشار وخوف الجانيب.

ومن مظاهر التشويه: الاستدلال ببعض التقاليد والأعراف — كمواسم نصب السلطان، والمثول بين يديه، ووضع الزراب على الرأس إظهاراً للخضوع، واستخدام الطبول، وغيرها من الأمور التي وجدت حيناً في إمبراطوريات غانا ومالي وسنغاي، وكذلك بعض مظاهر الصوفية: كالتبرك بالأولياء، وقراءة القرآن على الأموات، وإقامة الولائم في المآتم، ووجود بعض المشعوذين — الاستدلال بها على نفي أثر الإسلام الإصلاحيّ والحضاريّ في المنطقة، أو التقليل من شأنه وتقزيمه بعبارات «الإسلام الأسود» أو «النموذج الأفريقي للإسلام» أو «المزاوجة بين الإسلام والديانات الوثنية الأفريقية» أو «الإسلام السطحي» ونحوها؛ وكلها تهدف إلى الزعم بوجود إسلام لا يبقى منه إلا اسمه، وسيادة الوثنيّات قولاً وعملاً إلا ما ندر؛ فقد اتخذ تلك الأمور «بعض المصلين من الباحثين الذين يتعمدون تجاهل المدّ الإسلاميّ الحضاريّ في توجيه وتقويم الأحداث التاريخية وشؤون الحياة لمنطقة السودان الغربي».... ثم التشكيك حول تاريخ مسلمي هذا الجزء من العالم الإسلامي(٦)،

إن من قال بهذا إنّما خلط بين المسلمين والوثنيين الذين قد يستعينون بالتعاون الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية، ويلجئون إلى شيوخ المسلمين، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين، ولا يترددون في تقليد الصلوات الإسلامية، وحضور المساجد والجنائز والاحتفال بالأعياد والمناسبات الإسلامية، بل جرت عادة بعضهم بإخفاء وثنيّتهم لظهورهم الرقي والتقدم؛ لأن المجتمع الوثني قد تعارف على أن الإسلام صنو لهما أخلاقياً واجتماعياً، ونفسياً(٧)، وتلك ظواهر يلحظها قلة من الباحثين في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة، وهي أمور تحدث إلى يومنا هذا، فحسبهم أولئك الباحثون مسلمين، وما هم كذلك، بل وثنيون.

ولا يلزم من هذا ألا يكون في المسلمين ضعاف نفوس يذهبون إلى السحرة، لكن الخطأ والمبالغة في الحكم على الجميع وفي إظهارهم بأنهم لم يتأثروا بالإسلام. من تلك الظواهر: أنّ من ملوك هذه الممالك والإمبراطوريات الأفريقية من يكون مسلماً، ثم يأتي بعده من أسرته من على الوثنية؛ وذلك قبل تحويلها كلية إلى ممالك إسلامية ملكاً وشعباً، فإذا جاء بعض الدارسين ليتحدّث عن هذه المملكة كان تركيزه على تحويلها كلية إلى إسلامية فيصور تصرفات هؤلاء الملوك الوثنيين، أو المداهنيين لشعوبهم المسلمة على أنّها تصرفات من ملوك مسلمين، ثم يسم المسلمين عامّة بأنّ إسلامهم كان سطحيّاً أو نموذجاً أفريقياً، وأنهم مع إسلامهم يمارسون تقاليد وثنية(٨).

(قيام مملكة مالي)

لا تزال المعلومات حول المراحل المبكرة لقيام مملكة مالي قاصرة على إعطاء فكرة واضحة لتاريخ تلك الفترة، والمصادر الأساسية التي اعتمد عليها الباحثون في تاريخ مالي المبكر قبل عصر الإمبراطورية هي بعض المعلومات التي استخلصوها من التراث المحلي المتداول بين مجموعات المالنكي مؤسس المملكة. وقد اتفق أغلب المؤرخين على تتبع أطوار ظهور مملكة مالي على مرحلتين أولهما مرحلة الزعامات الشمالية، وتذكر الروايات المحلية أن هناك أسرتين توليتا الحكم في تلك الفترة



هما أسرة التراورا (Traora) وأسرة كوناتي (Conate) أو كامارا (Kamara) والمرحلة الثانية ، هي التي نمت فيها مالي في الجنوب حتى أصبحت إمبراطورية قوية تحت أسرة كيتا . ويؤرخ لبداية هذه الفترة بنهاية القرن الحادي عشر أو منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو التاريخ نفسه ، الذي يحدد به نهاية فترة زعامات المرحلة الأولى في الشمال ، وتحديد تاريخ ظهور زعامات الشمال غير واضح ولكن لا يرجع إليه في الغالب قبل القرن العاشر الميلادي (٩).

وهذه الآراء تعطي تواريخ متأخرة لتطور زعامات المالنك في الشمال وفي الجنوب ، لأن مجمل هذه الآراء لا يرجع إلى ما قبل منتصف القرن العاشر الميلادي بصورة قاطعة بل ينحصر بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، وليس هناك تركيز على المرحلة السابقة لذلك وهي الفترة التي قطعت مالي شوطاً بعيداً من التطور قبل القرن الحادي عشر الميلادي بل تطورت بعض الزعامات إلى ممالك وساهمت بدورها في تاريخ غرب أفريقيا إلى جانب شقيقاتها غانة وكوكو وكانم.

إن تطور ممالك غرب إفريقيا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو العلاقات مع شمال إفريقيا عبر الصحراء ، وقد ارتبط تطور العلاقات بالتجارة وكان لذلك النشاط التجاري الكبير دوره في توطيد أركان مملكة السوننك في مرحلتها الأولى في أودغست ثم في مرحلتها الثانية بعد انتقالها جنوباً إلى كوميبي صالح في منتصف القرن الثامن الميلادي (١٠).

ورغم أننا نفتقد المعلومات عن تجمعات المالنك في الفترة التي ظهرت فيها مملكة السوننك (غانة) إلا أن الأوضاع العامة في المنطقة يمكن أن تلقى بعض الضوء على تلك الحقبة ، فقد توصل السوننك (الفرع الشمالي لمركمي لغة الماندي) إلى تطوير أساليب حياتهم الاقتصادية والسياسية فظهرت مملكتهم غانة في النصف الأخير من الألف الأول الميلادي ، وانتظمت علاقاتهم التجارية عبر الصحراء شمالاً فاتصلوا بحوض البحر المتوسط.

وكانت علاقات السوننك بالجنوب قوية من أجل التجارة ، لأن أغلب السلع التي اعتمدت عليها تجارتهم تتواجد على أرضي المالنك في الجنوب بما في ذلك السلعة الرئيسية وهي الذهب ، وقد أثبتت أعمال التنقيب الأثاري أن المناطق الواقعة بين أعالي السنغال والنيجر كانت مرتبطة بتجارة الصحراء منذ بداية الألف الميلادي الأول (١١) ، وكان السوننك دائمياً التحرك جنوباً لعوامل الجفاف التي بدأت تظهر في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى وللضغط الذي تعرضوا له من القبائل البدوية بعد ظهور الجمل في الصحراء نحو نهاية النصف الأول من الألف الأول للميلاد (١٢).

كل ذلك يوضح ارتباط منطقة أعالي نهري السنغال والنيجر — حيث عاش المالنك — ارتباطاً وثيقاً بحضارات السوننك ووصول المؤثرات الحضارية من حوض البحر المتوسط . وقد هيات تلك الأوضاع المناخ الملائم لتطور مجتمعات المالنك ، ومن المحتمل أن تنظيماتهم السياسية قد بدأت في التطور منذ منتصف الألف الأول للميلاد حتى تتمكن تلك التجمعات من تنظيم تجارة الذهب.

ولا شك أن مجتمعات المالنك قد استفادت كثيراً في بناء تنظيماتها من الهجرات التي وصلت إلى إقليمهم والتي لم تقتصر على العناصر السوننكية فقط ، بل وصلت أيضاً بعض العناصر اليهودية التي ساهمت مجموعة منها في قيام مملكة غانة في الشمال . وتدل إشارات المؤلفات العربية إلى قدم تلك الهجرات لدرجة ذوبانها في المجتمعات المالنكية (١٣).

وعندما انتقلت مملكة غانة إلى الجنوب في منتصف القرن الثامن الميلادي ازداد اتصال المالنك مع غانة خاصة وإن القرن الثامن الميلادي شهد بداية ازدهار الكبير لتجارة الصحراء بعد قيام وتطور

المراكز التجارية في شمالي الصحراء مثل أودغست وسلجماسة ومراكز وادي السوس ودرعة وأغمات

بدأت تجارة المغرب العربي تنتظم مع غرب إفريقيا (١٤) ، وقد اتجه أغلب ذلك النشاط التجاري نحو إقليم المالنك للحصول على الذهب ، والنتيجة الطبيعية لهذا الاحتكاك والتطور الاقتصادي هي نشوء الأنظمة السياسية بما يتلائم والأوضاع الجديدة.

وينعكس تطور الأنظمة السياسية لدى المالنك وارتباطه بالحركة التجارية في الروايات المحلية ؛ فقد ورد في تلك الروايات أن لاتال كالابي (Latal Kalabi) من سلالة بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له أبنان اختار أحدهما للحكم فتولى العرش بينما اختار الآخر طريق الثروة واشتغل بالتجارة ، فأصبح الابن الثاني أبا لطائفتي الواجا والدبولا اللتين اشتهرتا بالتجارة (١٥) ، ويؤكد ذلك أن قيام ممالك المالنك قد عاصر الفترة التي ازدهرت فيها التجارة على الأقل في النصف الأخير من القرن الثامن الميلادي. غير إن قيام مملكة غانة القوية على حدود المالنك الشمالية لم ينتج لتلك الممالك الفرصة للنمو والتوسع وربما خضعت مناطق المالنك في الشمال لسيطرة غانة ، فقد ذكر اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي بأنه تحت طاعة ملك غانة ، طاعة ملك غانة ، " عدة ملوك " (١٦) كما وضع ابن وصيف شاه في القرن العاشر الميلادي أثناء حديثه عن غانة بأنه " تحت يد ملكها عدة ملوك " (١٧).

وإذا افترضنا أن المناطق الشمالية كانت تابعة لنفوذ مملكة غانة فإن مملكة مالي في القرن التاسع الميلادي كانت قد توسعت في المناطق الجنوبية ، وأشرفت على مصادر الذهب وأصبحت من الممالك الشهيرة في غرب إفريقيا ، فوضع اليعقوبي ، " مملكة ملل " إلى جانب تلك الممالك الكبرى كغانة وغيرها (١٨).

وبالرغم من أن لفظ ملل قد أطلقه العرب أساساً على متكلمي لغة الماندي في أعالي نهري الستغال والنيجر (١٩) فإن ذلك لا يمنع أن تكون هي نفس المملكة التي توسعت فيما بعد وأصبحت إمبراطورية منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

فمملكة ملل التي أشارت إليها المصادر العربية بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلادي كان موقعها في أقصى جنوب ممالك الماندي (٢٠) وهي على حسب التقسيم العام تعتبر من الممالك الجنوبية حيث قامت الإمبراطورية ، فملل إذا كانت قائمة على نهر سانكراني في القرن التاسع الميلادي ووسعت حدودها وأشرفت على مناطق الذهب حتى أصبح يد ملوكها — كما وضحت المصادر الإباضية عصر إمبراطوريتنا ، حيث أنها أضحت تستخرج اثنتا عشر معدناً يستخرج منها التبر " (٢١).

ومن مظاهر التشويه: الاستدلال ببعض التقاليد والأعراف — كمواسم نصب السلطان، والمثول بين يديه، ووضع التراب على الرأس إظهاراً للخضوع، واستخدام الطبول، وغيرها من الأمور التي وجدت حيناً في إمبراطوريات غانا ومالي وسنغاي، وكذلك بعض مظاهر الصوفية: كالتبرك بالأولياء، وقراءة القرآن على الأموات، وإقامة الولائم في المآتم، ووجود بعض المشعوذين — الاستدلال بها على نفى أثر الإسلام الإصلاحية والحضارية في المنطقة، أو التقليل من شأنه وتقزيمه بعبارات «الإسلام الأسود» أو «النموذج الأفريقي للإسلام» أو «المزاوجة بين الإسلام والديانات الوثنية الأفريقية» أو «الإسلام السطحي» ونحوها؛ وكلها تهدف إلى الزعم بوجود إسلام لا يبقى منه إلا اسمه، وسيادة الوثنيات قولاً وعملاً إلا ما ندر؛ فقد اتخذ تلك الأمور «بعض المصلين من الباحثين الذين يتعمدون



تجاهل المد الإسلامي الحضاري في توجيه وتقويم الأحداث التاريخية وشؤون الحياة لمنطقة السودان الغربي.... ثم التشكيك حول تاريخ مسلمي هذا الجزء من العالم الإسلامي» (٢٢)، إن من قال بهذا إنما خلط بين المسلمين والوثنيين الذين قد يستعينون بالتعاويذ الإسلامية مع تعاويذهم الوثنية، ويلجئون إلى شيوخ المسلمين، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين، ولا يترددون في تقليد الصلوات الإسلامية، وحضور المساجد والجنائز والاحتفال بالأعياد والمناسبات الإسلامية، بل جرت عادة بعضهم بإخفاء وثنياتهم لظهوروا بمظهر الرقي والتقدم؛ لأن المجتمع الوثني قد تعارف على أن الإسلام صنو لهما أخلاقياً واجتماعياً، ونفسياً (٢٣)، وتلك ظواهر يلحظها قلة من الباحثين في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة، وهي أمور تحدث إلى يومنا هذا، فحسبهم أولئك الباحثون مسلمين، وما هم كذلك، بل وثنيون.

ولا يلزم من هذا ألا يكون في المسلمين ضعاف نفوس يذهبون إلى السحرة، لكن الخطأ والمبالغة في الحكم على الجميع وفي إظهارهم بأنهم لم يتأثروا بالإسلام.

من تلك الظواهر: أن من ملوك هذه الممالك والإمبراطوريات الأفريقية من يكون مسلماً، ثم يأتي بعده من أسرته من على الوثنية؛ وذلك قبل تحولها كلية إلى ممالك إسلامية ملكاً وشعباً، فإذا جاء بعض الدارسين ليتحدث عن هذه المملكة كان تركيزه على تحولها كلية إلى إسلامية فيصور تصرفات هؤلاء الملوك الوثنيين، أو المداهنيين لشعوبهم المسلمة على أنها تصرفات من ملوك مسلمين، ثم يسم المسلمين عامة بأن إسلامهم كان سطحياً أو نموذجاً أفريقياً، وأنهم مع إسلامهم يمارسون تقاليد وثنية (٢٤).

يقول المستشرق الإنجليزي (تريمينجهام Trimmingham) في كتابه (تاريخ الإسلام في غرب أفريقيا) "إن من أبرز خصائص انتشار الإسلام وثقافته في غرب أفريقيا والعالم أجمع هو، التعليم المسجدي" أو التعليم في المساجد؛ وذلك في الخطوات الأولى التي يقوم بها أنصار الدعوة الإسلامية، وهذا النوع من التعليم أتبعه سكان (كانم) منذ اعتناقهم لهذا الدين " (٢٥)

وقد زار الرحالة المشهور (ابن بطوطة) مملكة مالي عام ٧٥٢هـ، وكتب عنها. ومما نقل عنه قوله: (لقد عجبت بشدة عنايتهم بحفظ القرآن، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه، ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون. فقلت: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل! حتى يحفظوا القرآن). (٢٦)

انتشار الإسلام في مالي

لم تمدنا المصادر العربية بمعلومات وافية عن الإسلام في منطقة المالنك — قبل القرن الحادي عشر — بنفس القدر الذي اتضح به، في مملكتي غانة والتكرور، والنصوص القليلة التي وردت عن تلك الفترة لا تتمكن من رسم صورة واضحة لتاريخ انتشار الإسلام في تلك المنطقة. فإذا استثنينا نص البكري عن ملك مل — المسلماني — نجد أن ابن خلدون (ت ١٤٠٥) والقلقشندي (ت ١٤١٨) قد أشارا إلى إسلام أهل مالي قبل قيام إمبراطوريتهم بوقت طويل (٢٧) بينما ذكر ليو الإفريقي (انتهى من تأليف كتابه سنة ١٥٢٧) أن أهل مالي كانوا من دان بالإسلام (٢٨) وفي ذات الوقت يوصف ابن سعيد (ت ١٢٧٤ أو ١٢٧٦) مالي بأنها " من مدن الكفار المهملين (٢٩) ، بينما تحفظ الإدريسي فذكر أنه يغلب عليهم الكفر والجهالة. (٣٠)



ويبدو واضحاً أن المصادر التي اعتمد عليها ابن سعيد غير دقيقة في معلوماتها ، لأن دخول الإسلام إلى غرب إفريقيا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتجارة ، ولما كانت غرب إفريقيا قد دخلت في نطاق التجارة القاري بصورة واسعة منذ القرن الثامن الميلادي ، فإن التجار قد بدأوا يصلون بانتظام إلى منطقة الممالك التي تشرف على مصادر الذهب.

وكان التجار إلى جانب أعمالهم التجارية يقومون بالدعوة إلى الإسلام ، وقد ارتبطت التجارة وانتشار الإسلام في غرب إفريقيا إلى درجة التي أصبح من العسير معها وضع حد فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة وبين دور العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى وغالباً يجتمع الدوران في نفس الرجل (٣١) ، ويتضح ذلك من تتبع سير الإباضية الذين كانوا يمارسون التجارة على نطاق واسع مع غرب إفريقيا منذ القرن الثامن الميلادي.

فقد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس ووحدات الجزائر منذ القرن الثامن الميلادي إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء ، وعزز من ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هواره وزناتة للمذهب الإباضي وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء (٣٢).

وسرعان ما انتضمت تجارة الإباضية في زويلة تحت أمارة بن الخطاب منذ تأسيسها عام ٧٦٢م (٣٣) ، وتوسعت تجارة الصحراء بقيام الدولة الرستمية الإباضية في تاهرت (بالجزائر) عام ٧٧٦ - م ، فقد أشرفت هذه الدولة على المنطقة الصحراوية ما بين سجلماسة (جنوب المغرب الأقصى) وزويلة التي دخلت ضمن دائرة نفوذها ، واهتم الرستميون بالتجارة الداخلية في الصحراء وأرسلوا الجنود بصحبة التجارة لتأمينهم من الأماكن التي يخشى فيها من غارات البدو (٣٤).

ولم ينحصر جهود الإباضية في نشر الإسلام على نشاط التجارة فقط ، بل كانت لهم برامج مخططة لاهل الدعوة تضمنها نظام العزابة (٣٥) ، أهل الدعوة مجموعة من رجال العلم اتجهن جهودهم لاعلاء كلمة الله وبث تعاليم دينه وتبصير الناس بأمور دينهم وديناهم ، وقد تركز جانب كبير من اهتمام أهل الدعوة على غرب إفريقيا التي كانت تعتبر " دار دعوة " فانشأوا الربط منذ مستهل القرن الثامن عشر الميلادي في المنطقة الصحراوية الواقعة بين ورجلان وسجلماسة (٣٦).

ويتضح من النصوص التي جمعها ، نشاط أهل الدعوة الواسع جنوبي الصحراء الكبرى ، قد اقترن بذكر الكثير من فقهاء الإباضية بغرب إفريقيا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، والفقهاء الذين وردت أخبار زيارتهم إلى غرب إفريقيا يعتبرون من كبار الأساتذة في عصورهم ، وقد وردت أخبار زيارتهم إلى تلك المناطق عرضياً أثناء تناول بعض أخبارهم مما يرجح احتمال ترددهم الدائم على جنوبي الصحراء ولم تسجله لنا كتب السير ، وإذا كان كبار الفقهاء قد ترددوا على غرب إفريقيا فهذا يعني أن هنالك مجموعات كبيرة من أهل الدعوة كانوا يقومون بنفس العمل ولم تهتم كتب السير بأخبارهم.

ولذلك فقد تمكن الإباضية من تجار وفقهاء من تقوية اتصالاتهم بغرب إفريقيا منذ القرن الثامن الميلادي ، ولعل كثير من تلك المناطق قد اعتنقت الإسلام على يد الإباضية منذ ذلك الوقت فقد ذكر الشماخي أن " بلاد السودان بغانة وما يليها كانت تدين بالمذهب الإباضي حتى تسامعت بهم المخالفون فقصدها من كل صوب فردوهم إلى مذهبهم (٣٧) .



ويفهم من هذه الإشارة أن الإباضية هم أول من قام بتركيز الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا قبل وصول الأعداد الكبيرة من فقهاء المذاهب الآخر ، ومن المعروف أن المذهب المالكي — الذي ساد في غرب إفريقيا — قد ارتبطت به سيادته بحركة المرابطين في الصحراء الغربية في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ويبدو أن انتشاره الواسع كان على حساب المذهب الإباضي الذي ساد في المنطقة منذ القرن الثامن الميلادي ، وقد ظلت بقايا الإباضية حية في إمبراطورية مالي حتى القرن الرابع عشر الميلادي حيث لاحظ ذلك ابن بطوطة (٣٨).

ويرد بعض المؤرخين على ما أدعاه أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ت ٩٢٨هـ — ١٥٢٢م ، — كان من علماء الإباضية في المغرب — وغيره من أن بلاد السودان الغربي وإمبراطورية غانا كانت تدين بالإباضية قبل أن يقصدها مخالفوها لرد أهلها عن مذهبهم الإباضي (٣٩)؛ لأنّ الثابت أن الذين نقلوا الإسلام إلى المنطقة منذ القرن الأول الهجري لم يكونوا إباضيين، كما لم يكونوا صوفيّين. فمن أين كان لها الأسبقية المزعومة؟ وكيف؟.

وقد دخل الإسلام المنطقة من أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجري، فقال الشيخ أحمد بابا التتبيكتي ، " (٤٠) أنه لم يكد يمضي عام (٦٠هـ) حتى كان في مدينة كومبي صالح — عاصمة إمبراطورية غانا — اثنا عشر مسجداً" (٤١) وقبله ذكر البكري وجود هذا العدد في الجزء الذي يسكنه المسلمون من المدينة، ولهم فيها أئمة وفقهاء وحملة علم، كما أن في مدينة الملك مسجداً يصلّي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكمه، وتولى بعض التجار المسلمين مناصب إدارية عليا في مملكته، وكان منهم تراجمه للملك وصاحب ماله وأكثر وزرائه (٤٢). وذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أنها تتكوّن من جزأين على حافتي النهر ومن أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً وأنّ عقبة بن نافع افتتح حوالي (٤٦هـ) (كاوار) من تخوم السودان ، تقع قرب بحيرة تشاد، وأرسل مجموعة من جيشه إلى البربر والملثمين والسودان ليعلموهم القرآن والفقه. (٤٣)

أدى انتشار الإسلام والخط العربي بين المسلمين الجدد، خاصة في المدن والمراكز التجارية، إلى تركّز استعماله في مبدأ الأمر في العلوم الإسلامية، وتدرجياً عمّ سائر المعارف الأخرى، كالآداب، والتاريخ والجغرافيا، وأدب الرحلات. وصار تبادل الكتب والاتجار فيها من أهم مظاهر التواصل (الإفريقي- العربي) ، و بين مراكز الإشعاع الإسلامية القديمة، كالقاهرة ومكة والمدينة، ودمشق وبغداد، والقيروان وجامع القرويين وفاس، ومراكز الإشعاع الإفريقية الجديدة مثل تمبكتو وجنّي وكنو وفوا ، ولعل عملية التبادل هذه إحدى مقومات ما يعرف (بطريق الحرير). وتنقسم الكتب المتداولة في ذلك الحين إلى نوعين أولهما بأقلام مؤلفين عرب أو مسلمين من المشرق الإسلامي والشمال الإفريقي. وثانيهما بأقلام أفارقة سودانيين وأشباههم. (٤٤)

إسلام ملك مالي : —

يعتبر ما أورده البكري (ألف كتابه بالأندلس ١٠٦٧) أقدم نص عن إسلام الأسرة الحاكمة في مالي ، وربما كان إسلام الملك قد تم في وقت سابق بكثير للبكري حتى أصبحت قصة إسلام ملك مالي مشهورة وتناقلتها الألسن إلى خارج غرب إفريقيا ، وربما سجلتها بعض الكتب — قبل عصر البكري



لأن الشماخي ذكر أن إسلام ملك مالي " المسلماني " الذي تحدث عنه البكري وورد عند غيره من المؤلفين (٤٥).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ، ما مصدر البكري في تلك المعلومات ؟ ؛ فالبكري لم يزر غرب إفريقيا ، ومعلوماته عن تلك المنطقة إما أخذها من مؤلفات سبقته أو من التجار ، والمؤلفون الذين من المحتمل أن يكونوا قد أشاروا إلى مثل هذه المعلومات ولم تصل إلينا أعمالهم كاملة هم : أحمد بن محمد الرازي (ت ٩٥٥م) صاحب كتاب المسالك والممالك ، ومحمد بن يوسف (ت ٩٧٣م) ، والحسن بن أحمد المهلب (ت ٩٩٠م) (٤٦).

وقد عاش الرازي ومحمد بن يوسف في المغرب وعاشا حركة تجارة الصحراء واختلطوا بالتجار فتوفرت لهما الفرصة لجمع كثير من أخبار غرب إفريقيا ، ورغم أن البكري لم يشر إلى مصادر معلوماته عن غرب إفريقيا فقد أشار كثيراً إلى محمد بن يوسف فيما يتعلق بالأخبار الخاصة بالمغرب أما المهلب الذي عاش بمصر فقد توفرت لديه أيضاً بعض المعلومات الهامة وقد وصل بعض منها عن طريق أبي الفداء والقلقشندي.

فإذا كان قد اعتمد على أحد هؤلاء المؤلفين فيما أورده عن ملك مالي " المسلماني " يكون هذا الخبر راجعاً إلى تاريخ مبكر في القرن العاشر الميلادي أو قبله ، وإذا كان اعتماد البكري في تلك المعلومات على التجار فإن ذلك أيضاً ربما رجع بها إلى نفس التاريخ السابق لما تتطلبه الرواية من وقت طويل حتى تصل عن طريق إلى الأندلس.

ومن جانب آخر نجد أن نفس رواية البكري قد ذكرها الدرجيني (ت ١٢٧١م) وقد جاء نص الدرجيني طويلاً ومفصلاً جداً رغم إشارته الصريحة إلى مصدره قائلاً : " حدثني جماعة من أصحابنا " (٤٧) أي الدرجيني لم يعتمد على مصدر مكتوب في روايته ، وتتفق رواية كل من البكري والدرجيني في عناصرها الأساسية ، مثل الاتفاق على وقوع الحدث في مالي والكيفية التي أدت إلى إسلام الملك. ويضيف الدرجيني بعض المعلومات الهامة ، فقد وضح أن أهل مدينة مالي كلهم آمنوا بالإسلام وكذلك فعل كثير من أهل المدن المجاورة الذين كانوا تحت حكم ملك مالي ، بينما طلب أهل المدن البعيدة — وهم أيضاً تحت نفوذ ملك مالي — تركهم على أديانهم فسمح الملك لهم بشرط أن لا يدخل مدينة مالي كافر ، وهذا كله لا يتفق مع ما ذكره البكري من إسلام الملك فقط ، وأهل مملكته مشركون " (٤٨).

ويفهم من نص الدرجيني أن مملكة مالي كانت قوية باسطة نفوذها على عدد كبير من المدن المجاورة لها ومشرفة على مصادر الذهب وتحت مملكة عظيمة ، وتحت اثنا عشر معدناً يستخرج منها التبر (٤٩) ، وهذا يرجع إسلام الملك إلى عهد الملوك الصيادين أو المحاربين .

وتربط الروايات المحلية بداية هذا العصر بالملك نادامي كاني حفيد لاهياتول كالابي ، واسم لاهياتول كالاني ارتبط أيضاً بأول ظهور مملكة المالك ، في الجنوب وهو الوقت الذي بدأت فيه الحركة التجارية في الازدهار لأن بعض الروايات جعلت نادامي كاني ابناً للملك الذي قويت في عهده طبقة التجار حتى أصبحت متساوية من حيث المكانة الاجتماعية للطبقة الحاكمة ، لأن مؤسس طبقة التجار كان — كما في الرواية — أخاً للملك (٥٠).

وعهد الملوك المحاربين يشير إلى تلك الفترة المبكرة من تاريخ مالي عندما تمكنت من بناء قوتها الحربية وتوسعت موحدة مناطق واسعة من إقليم المالك في الجنوب ، وقد تم تدعيم ذلك النظام الحربية عند نادامي كاني ؛ وهو ما ينطبق على وصف قوة مالي من خلال نص الدرجيني ، وقد اكتسبت مالي



تلك القوة — كما سبق أن أشرنا — منذ القرن الثامن الميلادي وهو الوقت الذي توقفت فيه ارتباطاتها التجارية القارية فأصبح وجود نظام حربي قوي للدفاع عن هذه المكاسب ضرورة قصوى غير إن الدرجيني ذكر أن الفقيه الذي تم على يده إسلام ملك مالي يسمى "علي بن يخلف" الذي ذهب مالي عام (١١٧٩م) وهو جد الدرجيني . فالدرجيني هو أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف . ولما كانت رواية الدرجيني (٥١) هي نفس رواية البكري الذي ألف كتابه عام (١٠٦٧م) أي قبل أكثر من مائة عام من ذهاب علي بن يخلف إلى مالي ، فإن ذلك يوضح أن قصة إسلام ملك مالي كانت متداولة ومعروفة في المجتمع الإباضي قبل عصر الدرجيني بأكثر من قرنين ولما كان علي بن يخلف قد اشتهر هو أيضاً بأسفاره إلى غرب إفريقيا وبمكانته الكبيرة لدى بعض ملوكها فقد أسند إليه الدرجيني بناء على الروايات السائدة — قصة إسلام ملك مالي — وأغلب الظن أن علي بن يخلف تمكن هو أيضاً من إقناع بعض زعماء المالك لا اعتناق الإسلام فاختلف ما قام به علي بن يخلف بما قبله خاصة وأن اسم "ملك" في اللسان العربي قد يصدق على أي زعامة من زعامات المالك . ويميل الدرجيني وجود هذه الرواية في التراث الإباضي على أن الفقيه الذي قام بها إباضياً ولهذا يميل الدرجيني إلى افتراض أن المسلماني الذي ذكره البكري أسلم على يد أحد فقهاء الإباضية ، وهناك الكثير من فقهاء الإباضية يحملون اسم "ابن يخلف" من بينهم أبو نوح سعيد بن يخلف من علماء النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، وقد اشتهر ابن يخلف هذا أيضاً بأسفاره إلى غرب إفريقيا (٥٢) ، فربما تكون الرواية في الأصل لابن يخلف ، هذا خاصة وأنه عاش في زمن يتوافق مع أحداث رواية البكري .

ولم يأتي الشماخي في روايته بشيء جديد يساعد على تفسير التناقض الذي وقع فيه الدرجيني لأنه اعتمد — عل ما يبدو — على الدرجيني، فقد أسند إسلام ملك مالي هو أيضاً إلى علي بن يخلف مع ما تبقى من أحداث الرواية ، ومن الممكن أن يكون الشماخي قد وجد هذه الرواية مسنودة إلى علي بن يخلف في أكثر من مصدر لأنه أورد أن البكري قد ذكرها في المسالك والممالك ألا أنه لم يسمه وسماه غيره (٥٣) .

هذه القصة نفسها تؤيد الخلط بين بداية وصول الإسلام إلى هذه المملكة وغيرها وإسلام شعب، أو أفراد منه وبين إسلام الملوك، ومن ثم عدّ ممالكهم إسلامية؛ فقد كان انتشار الإسلام بين (الماندينغ) متقدماً على إعادة تأسيس المملكة على يد ماري جاطة (سوندياتا كيتا ٦٢٨ — ٦٥٢هـ — ١٢٣٠ — ١٢٥٥م)، وكذلك كان متقدماً على تاريخ وصول هذا الذي يزعم إسلام ملك مالي على يديه إلى المنطقة ٥٧٥هـ — ١١٧٩م . فالبكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧هـ — ١٠٩٤م) يذكر أن هذا الضيف كان عند الملك يقرأ القرآن، ويعلم السنة (٥٤)، فما هي السنة التي كان يعلمها غير سنة الرسول ؟ ولمن كان يعلمها إذا لم يكونوا من حاشية الملك الذين أسلموا، ولما يسلم هو؟ لا يحتمل أن يكون الملك من الفئة التي قد تخفي إسلامها لعدم إسلام معظم الشعب بدليل قبوله تعليم القرآن والسنة في مجلسه وبحضوره

تتناقض الروايات في تحديد بداية علاقة الإباضية، تجاراً وفقهاء، بغرب إفريقيا بين القرن الثامن، أو التاسع، أو العاشر الميلادية (٥٥). وتناقضها — أيضاً — في المملكة التي أسلم ملكها في القصة أهـي مالي أم غانا؛ فعند البكري أنها مالي من غير أن يقول إن الضيف إباضي، بل ذكر أنه ضيف من المسلمين، فإذا انضم إلى هذا كون البكري من مصادر الشماخي الذي زعم إباضيته (٥٦)، وتعليم هذا

الشيخ للسنة، ودعوة الملك إلى الاعتقاد بشرائع الإسلام كلها من غير إشارة إلى الإباضية تبين أن هذا الضيف على مذهب السلف لا الخوارج الإباضية، وتأكد دخول الإسلام إليهما قبل هذا التاريخ، أو على افتراض كونه منها فإنه بناء على تصرفاتهم لم يكن يدعو إليها (٥٧) في وسط سبقها إليه مذهب آخر نما وتقوى.

وأورد البارغني والسوفي والشماخي روايات أخرى تضمنت سفر الشيخ أبي يحيى ابن القاسم الفرستائي إلى (السودان) وإسلام ملكهم على يده (٥٨) ، والفرستائي كما ذكر الشماخي من ضحايا " معركة مانو " التي حدثت بين أسرة الأغالبة التي حكمت في تونس وبين اباضية جبل نفوسة عام ٨٩٧ م (٥٩).

دور العلماء والتجار في نشر الدعوة

إن تاريخ الدعوة عموماً وانتشار الإسلام في إفريقيا والتي تنطبق على كافة الأقاليم في مثل هذه القارة الإفريقية الكبيرة قد أعاقها تنوع وتعقد البيئة المحلية والخارجية التي دخل من خلالها الإسلام. لا جدال في أن التجار المسلمين قد لعبوا دوراً تاريخياً بارزاً ورائداً في خلق ظروف ملائمة ترسخت فيها الهداية وازدهرت. من الصعب تصور أو تخيل انتشار الإسلام في مناطق لم يسبق فيها التجار المسلمون وصول علماء الدين المسلمين ، ولكن إذا ركز علي هذه الحجة كثيراً فإنها تؤدي إلى تأكيد مثل إلي ذكره ماككول " هناك بعض الشك بأنه طالما أن التجار المسلمين يؤدون أعمالهم التجارية في إفريقيا جنوب الصحراء ، فإنهم أيضاً يشرحون ويقسرون وينصحون "

لقد ذكر (والو) أن المعلمين المسلمين مشغولون بالتعليم ولديهم وقتاً ضئيلاً ومصادر غير مناسبة للعمل في التجارة. هناك سمات ثقافية محلية مرتبطة بالتجارة فكلمة عالم لا تسمح بالاتصال بالنساء في الأسواق لأن ذلك قد يؤدي إلى إغراءات ، عليه ، فإن المعلمين وعلماء الدين في أفريقيا يبدو أنهم ، في أغلب الأحيان ، ينفرون مهنياً وثقافياً من ، التجارة .

اقترحوا الكتاب أن التجار بصورة ثابتة يرافقهم علماء الدين الإسلامي ، ولقد أكدوا أن علماء الدين ، قد سمح لهم الحكام الأفارقة بممارسة ونشر ديانتهم . ثانياً ، إنها تحجب الدور الذي لعبه علماء الدين المتخصصين في نشر العقيدة وذلك بإعطاء دور أكبر للتجار ، أكبر من ذلك الذي منح لعلماء الدين. لقد وصف ليفتربون التجار " بأنهم بمثابة أدوات لنشر الإسلام لما وراء حدود التوسع العسكري ، لقد اعتبر الفترة التي نشر فيها التجار الإسلام بمثابة المرحلة الثانية في عملية انتشار الإسلام ، وفي كتابات لاحقة ، فقد ذكر " لقد فتح التجار الطرق ، لقد عرضوا المجتمعات المعزولة لمؤثرات ثقافية خارجية ، وحافظوا علي الاتصالات ولكن يبدو أن التجار لم يشتركوا قاصدين في نشر الإسلام " . فإن الذين يمثلون الإسلام حقيقة هم التجار وعلماء الدين، إذ أن الشخص منهم غالباً ما يقوم بأداء الدورين معاً. (٦٠)

لم تكن الدعوة إلى الإسلام وفقاً على التجار بل إن هجرات قبائل البربر، نتيجة بعض الأحداث السياسية، كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في كل الأقاليم. فمن المغرب، ونتيجة لبعض الأحداث السياسية، اتجهت بعض القبائل صوب حوض السنغال، بينما اندفعت قبائل أخرى نحو الشرق حتى وصلت بلاد البرنو أو كانم، ويبدو أن معظم المؤثرات الإسلامية انطلقت من أقصى المغرب في اتجاه

شرقي، أي من مصب نهر السنغال أو منحني نهر النيجر أو من مراكز الإشعاع الإسلامية مثل تمبكتو، وجني، وكنو (كانو). (٦١)

أسرة كيتا مؤسس الإمبراطورية:—

سنحاول فيما يلي مناقشة بعض الروايات المحلية التي وردت حول ظهور أسرة كيتا وإسلام ملوك مالي على ضوء ما تقدم ، وقد حملت لنا تلك الروايات المتداولة أخبار ثلاثة أسر حكمت في المنطقة قبل أسرة كيتا ، وذكرت الروايات بعض التفاصيل عن أسرتين فقط هي أسرة تراورا (Traora) وأسرة كونناتي (Conate) أو أسرة كامارا (Kamara) وقد حكمتا — وفقاً للروايات — في المنطقة الشمالية لتجمعات المالك.

أما أسرة كيتا فقد ربطتها الروايات المحلية بالمنطقة الجنوبية وهي الأسرة التي ظهر فيها سندنائها (ماري جاطه في المصادر العربية) مؤسس الإمبراطورية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي.

ولا نعرف شيئاً من خلال تلك الروايات عن أسر أخرى حكمت في الجنوب غير أسرة كيتا ، فإذا حددنا القرن الثاني عشر أو نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تاريخاً لظهور أسرة كيتا كما رجح بعض الباحثين (٦٢) فمن هذه الأسرة القوية التي حكمت المالك في الجنوب وكتب عنها اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي في ملل ثم تحدثت عنها المصادر بعد ذلك ؟ وليس من السهل الإجابة على هذا السؤال من واقع النصوص التي أوردتها المصادر العربية غير الربط بينهما وبين الروايات المحلية ، ولكن من الممكن طرح بعض الفرضيات.

فمملكة ملل التي ذكرت في القرن التاسع الميلادي ، ردد ذكرها البكري في القرن الحادي عشر ووضعها إلى الجنوب من مملكة "دو" التي تصنف من ممالك المالك الشمالية ، وحدد الأديسي موقع ملل بأنها من أرض لملم الجنوبية ، وأشار ابن سعيد إلى تجمعات المالك في المنطقة إلى جانب مملكة ملل "وعلى شاطئ نهر الهو من مبتداء حتى مصبه تجمعات قبائل نمم وهم أخوة لملم في النسب وأشباههم في الأفعال (٦٣).

ويبدو أن الأسر المالنيكية التي رددت الروايات المحلية ذكرها لم تتوارث السلطة واحدة بعد الأخرى كما تشير الروايات إلى ذلك ، ويحتمل أن بعض تلك الأسر قد حكمت في أوقات معاصرة ومن بينها أسرة كيتا التي حكمت ملل وهي نفسها الأسرة التي ذكرها البكري والدرجيني أثناء حديثه عن إسلام ملكها (٦٤) ، وهذا يجعلني أميل إلى افتراض أن أسرة كيتا هي التي حكمت ملل منذ ظهورها كمملكة وليس الأسرة المالنيكية فقط منذ القرن الحادي عشر الميلادي.

فالروايات المحلية ربطت أسرة كيتا ببلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكرت الروايات أن حفيده لانال كالابي هو الذي أسس الزعامة ووسع حدوده على نهر سانكراتي ، وجاء بعده عهد الحاج لاهيلاكول كالابي، حيث تميزت في عهده البلاد بقوة تنظيم المملكة السياسي والحربي وفي عهد الملك

نادامي ، أصبح العمل التجاري واسعاً بدليل قوة طبقة التجار — في ذلك الوقت — حتى جعلتها الروايات المحلية ، مساوية في مكانتها الاجتماعية للأسرة المحاكمة. ويشير اكتمال قوة المملكة في عهد نادامي كاني وقوة طبقة التجار إلى الفترة التي توثقت فيها علاقات مالي التجارية مع الشمال عبر الصحراء ، ومن الواضح أن الفترة التي تطورت فيها تلك العلاقات ترجع إلى النصف الأخير من القرن الثامن الميلادي عندما انتقلت مملكة غانة إلى الجنوب وقوى ارتباطها عبر الدولة الصنهاجية في أودغست مع شمال إفريقيا . (٦٥)

ولذلك فإن قيام أسرة كيتا على نهر سانكراني وظهور قوة التنظيم السياسي والحربي والتجاري الذي ارتبط بحكم ناداني كان قد تم في النصف الأخير من القرن الثامن الميلادي وظلت تحكم مالي حتى ظهر فيها سنديانا في أول القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد أشارت بعض الروايات المحلية إلى عشرة حكام تولوا السلطة منذ تأسيس المملكة حتى حكم نارفامعان والد سنديانا (ماري جاطة) حيث تشير الروايات إلى الفترة الطويلة لحكم الأسرة ما بين ظهورها وتوسعها شمالاً في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

فأسرة كيتا — كما اعتقد — هي التي كانت تحكم في "ملل" عندما تحدث عنها اليعقوبي قائلاً : " ثم مملكة أخرى يقال لهم ملل .. ويسمى ملكهم ميوسي (٦٦) ، وميوسي هذا ربما كان الأكوي موسى ديجيبوي (A.M.Djgui) من سلالة بلال ، وإذا رجعت إشارة اليعقوبي إليه يكون حكم في القرن التاسع وليس في القرن الحادي عشر الميلادي ، وربما كانت كلمة ميوسي تحريفاً للقب الذي عرف به ملوك مالي — فيما بعد — من أسرة كيتا وهو " ماشا " ويؤيد ذلك أيضاً ظهور اللقب في هذه الأسرة منذ القرن التاسع الميلادي . كما تورد الروايات المحلية بعض أسماء ملوك مالي الذين اعتنقوا الإسلام والذين أدوا فريضة الحج وأغلب تلك الأسماء ارتبطت بأسرة كيتا انطلاقاً من بلال جد الأسرة والحاج لاهيلا تولى كالا بي الذي توسعت حدود البلاد في عهده والملك ديجيبوي الذي ذهب إلى الحج أربع مرات . فإسلام ملوك أسرة كيتا ارتبط في الروايات المحلية بتأسيس المملكة منذ أسرة القرن التاسع الميلادي على أقل تقدير.

ملحق رقم (١):

(نص البكري) (٦٧) : —

"عرف ملك مالي بالمسلماني ، لأن بلاده أجذبت عاماً بعد عام ، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة ، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك ، فقال له ، أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها ، لوجدت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك ، وإن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناؤك ، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته ، وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه ، وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسمح جهله ، ثم (أمهله) إلى ليلة جمعة ، فأمره فتنظر فيها طهراً سابقاً ، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده ، وبرز إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه ، يأتيه به ، فصليا من الليل ما شاء الله ، والمسلم يدعو والملك يؤمن ، فلما انفرج الصباح إلا والله قد أعظمهم بالسقي ، فأمر الملك بكسر الدكاكير — أي الأصنام — وأخرج السحرة من بلاده ، وصح إسلامه عقبه وخاصته ، وأهل مملكته ، مشركين فسموا ملكهم منذ ذلك الوقت بالمسلماني ."

ملحق رقم (٢):

نص الدرجيني (٦٨) : — حدثني جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى غانة سنة ٥٧٥ هـ فانتهى إلى مدينة مالي فأكرمه ملكها غاية الإكرام وكان أهلها مشركون وتحتة اثنا عشر معدناً يستخرج منها التبر فكان الملك قلماً جلس مجلساً إلا أجلس معه إكراماً له وكان يتعجب من خلقه، وكثرة عبادته ومحافظته على دينه حتى عاد إليه على الانفصال وقد قضى حاجته وكان ذلك في سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابها إلى ملكهم فأمرهم بالاستسقاء فجعلوا يستقون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم وذبحوا أنواع الحيوانات حتى البقر والغنم والحمير ، فلم يستقوا، فقال الملك " لعلني ألا تدعو إلهك الذي تعبد أن يسقينا ؟ فقال لا يسعني وأنتم تكفرون به وتعصونه وتعبدون غيره ، إن أنتم آمنتم به وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم فقال له الملك علمني الإسلام وفرائضه حتى أتبعك عليه ، وتستقي لنا فعله كيف يقرأ بالشهادتين فعملهما.

ثم قال أصحبتني إلى نهر النيل ففعل ، فعله كيف يتطهر ، ولبس ثياباً طاهرة ، ورقى به ربوة فوق النيل ، فعله الصلاة فصلى ثم قال أنا صليت فافعل ما تراني أفعل وإذا دعوت فقل آمين فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة إلى الله عز وجل فلما كان بعد صلاة الصبح انشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة ، فجاءهما زورق من النيل فركبا حتى دخلا المدينة ودامت السحابة سبعة أيام مقلعة تسيح ليلاً ونهاراً فزادت المؤمن إيماناً واستدعت إيمان الكافر فلما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع آل بيته للإسلام فأجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا نحن عبيدك فأجابوا ، ثم دعا من دنا من المدينة حتى رعيته فأجابت أكثرهم ثم دعا الأقصيين فقالوا نحن عبيدك ولك منا الطاعة ونتركنا على ما لقينا عليه أبائنا فسمح لهم ، ثم حكم بأن المدينة لا يدخلها إلا من آمن بالله ورسوله ومتى رأى فيها كافر قتل ، ثم قال له -علمني القرآن وشرائع الإسلام فجعل يعلمه حتى تعلم جملة ينتفع بها ، فبينما هو عنده في ذلك إذ ورد عليه كتاب أبيه يستدعي من المجيء ويحجر عليه في الإقامة فقال للملك اعلم أنني على سفر فقال لا يحل لك أن تتركنا نعود إلى العمى بعد أن أبصرتنا دين الهدى ، فقال اعلم إن في فرائض هذا الدين إبرار الوالدين وقد حجر على والدي المقام ؛ وهذا كتابه فلما رأى جده أحسن منقلبه وانفصل وبقوا على الإسلام والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- (١) يوسف فضل حسن: انتشار الإسلام في إفريقيا، الخرطوم، ١٩٧٩م، ص ٢
- (٢) جون جوزيف، ترجمة مختار السويفي الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، دار الكتاب المصري، (القاهرة، ١٩٨٤)، ص ٥٦
- (٣) عثمان بن فوديو الفلاني، والشيخ آدم عبد الله، الألوري الإسلام في نيجيريا، ط ٤ (بلا - ١٩٧٨) ص ٣٣٩
- (٤) أحمد الشكري الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي، (أبو ظبي، ١٩٩٥)، ص ٧٧
- (٥) عثمان أحمد، الأصالة التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية في غرب أفريقيا مجلة دراسات أفريقية، المركز الإسلامي الأفريقي، السنة الثانية، عدد ١ (القاهرة - ١٩٨٥)، ص ٣٧
- (٦) المصدر نفسه، ص ٣٧ - ٣٨
- (٧) محمد عبد الله الفقيرة، التأثير الإسلامي في غرب أفريقيا، (الرياض ١٩٨٨)، ص ٥٥
- (٨) عبد الهادي التازي، المغرب في خدمة التقارب الأفريقي العربي، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، (تونس - ١٩٨٥)، ص ٨٨
- ٨) Bovill, The Golden trade, Exford - ١٩٨٨, p ٦٦
- (٩) طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة - ١٩٨٣)، ص ٣٢ - ٣٧.
- (١٠) حسين، أحمد الياس: العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي بين القرنين ٨ - ١١ معهد الدراسات الأفريقية (القاهرة - ١٩٧٨)، ص ٥٨.
- (١١) طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية، ص ٣٨
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٣٩
- (١٣) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله الصقلي، ٥٦٠ ت هـ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره دوزي وغوبه، (لندن ١٩٦٤)، ص ٤. ابن سعيد: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، المكتب التجاري ١٩٧٠) ص ٩٠، ٩٢.
- (١٤) حسين، أحمد الياس: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن ١٦م كما عرفها الجغرافيون العرب. (القاهرة - ١٩٨٠)، ص ٩٢ - ١٠٤.
- (١٥) المصدر نفسه ص ٩٣
- (١٦) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ت ٢٨٤هـ، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، (بيروت - ١٩٦٠) ج ١ ص ١٩٤.
- (١٧) حسين، أحمد الياس: الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن ١٦م، ص ٩٢ - ١٠٤.
- (١٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ١٩٣.
- (١٩) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ت ٤٨٧هـ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي سلان، (الجزائر ١٨٥٧) ص ٥، ٦.
- (٢٠) المصدر نفسه ص ٧
- (٢١) الدرجيني، أحمد بن سعيد بن سليمان ت ٦٧٠هـ، طبقات المشايخ بالمغرب، مطبعة البعث (طرابلس - د ت ج ٢ ص ١٨، الشماخي، السير الاباضية، (المغرب - ١٩٧٥)، ص ٣٢
- (٢٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ، العبروديان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، تحقيق، خليل شهادة وسهيل زكار، (بيروت - ١٩٧١) ج ٦/ ٤٠٣، القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر، (دمشق - ١٩٨٧)، ج ٥، ص ٢٧٢
- (٢٣) د. عبد الهادي التازي، المغرب في خدمة التقارب الأفريقي العربي، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، تونس، عام ١٩٨٥م، ص ٥٩
- ٢٤) Bovill, The Golden trade, p ٤٢.



- (٢٥) محمد عبدالله الدويش ، التعليم الاسلامي العربي في أفريقيا ، مجلة قراءات أفريقية ، الخرطوم ، العدد الاول ٢٠٠٤ ، ص ٨
- (٢٦) ابن بطوطة ، محمد بن إبراهيم ، ت ٧٧٩ هـ ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، العرف بـ (رحلة ابن بطوطة) دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٨
- (٢٧) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ الحسن الوزان ، المعروف بليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، ترجمة من النسخة الفرنسية عبد الرحمن حميده (الرياض — دت) ص ٥٣٩ .
- (٢٨) ابن سعيد : بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان قرنيط (تطوان — ١٩٥٨) ص ٢٥ ..
- (٢٩) الادريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ٤ ..
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥
- (٣١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ ، دبوز ، محمد علي ، تاريخ المغرب الكبير ، عيسى البابي الحلبي (القاهرة — ١٩٦٣) ج ٣ ، ص ٣٤٩ ..
- (٣٢) حسين ، أحمد الياس : الطرق التجارية عبر المنطقة الشرقية من الصحراء الكبرى — كتاب الصحراء الكبرى ، طرابلس — ١٩٧٩ ، ص ٢١٢ ..
- (٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٣
- (٣٤) بعد سقوط الدولة الرستمية في تاهرت في نهاية القرن الثالث الهجري ظل الاباضية منذ ذلك التاريخ يحافظون على كيانهم في المناطق التي استقروا فيها ، وقد ساعدتهم على ذلك النظام الذي التزموا به كبديل لدولتهم وهو ما اصطلح على تسميته بنظام العزاية وهو مجموعة من التقاليد التي نظمت المجتمع الاباضي منذ دخول الاباضية في المغرب العربي . وقد درست تلك التقاليد والاعراف وسجلها كبار فقائهم بعد سقوط الدولة الرستمية — انطلاقا من مبادئ الشريعة الاسلامية وأصبحت قوانينا ألزم بها الاباضية ونظمت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمزيد من التفصيل انظر معمر ، علي يحيى ، الاباضية في موكب التاريخ ، بيروت — ١٩٨١ ، ص ١٠٧ .
- (٣٥) الزهري ، ابو عبدالله بن ابي بكر (ت . آخر القرن ٦ هـ) كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حاج صادق ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٢٦ ..
- (٣٦) الزهري : كتاب الجغرافيا ، ص ١٢٧
- (٣٧) الشماخي ، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ت ٩٢٨ هـ ، السير الاباضية ، طرابلس — ١٩٨٥ ، ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .
- (٣٨) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٢٨
- (٣٩) جون جوزيف ، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء ، ترجمة مختار السويقي ، دار الكتاب المصري ، القاهرة — ١٩٨٤ ، ص ٦٦
- (٤٠) التنبكتي ، أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني أبو العباس . مؤرخ من أهل التنبكتي في أفريقيا الغربية . ولد فيها سنة (٩٦٣ هـ — ١٥٥٦ م) . كان عالما بالحديث والفقه . عارض احتلال المراكشيين لبلدته تنبكت فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقيد إلى تنبكتي سنة (١٠٠٢ هـ) ، توفي بتنبكتو سنة (١٠٣٦ هـ — ١٦٢٧ م) . له عدة مؤلفات منها : نيل الابتهاج بتطريز الديباج في تراجم المالكية وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، أنظر ، أحمد التنبكتي ، ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، ar.wikipedia.org
- (٤١) التنبكتي ، أحمد ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج في تراجم المالكية ، نقلا عن محمد عبدالله الدويش ، التعليم الاسلامي العربي في أفريقيا ، مجلة قراءات أفريقية ، الخرطوم ، العدد الاول ٢٠٠٤ ، ص ٨
- (٤٢) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، ص ١٧٩
- (٤٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٣٤٩
- (٤٤) يوسف فضل حسن ، الإسلام في أفريقيا ، مقدمة عن انتشاره ، الخرطوم ، د.ت ، ص ٣٣
- (٤٥) الشماخي : ، السير الاباضية ، ص ٤٥٧



- ٤٦) ألحجي، عبد الرحمن علي : جغرافيا الاندلس واوروبا لابي عبيد البكري (بيروت دار الارشاد ١٩٦٨) ص ٢٠ — ٢٩ حسين ، أحمد الياس : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى ص ١١ — ١٢ .
- ٤٧) — نعيم، قذّاح، أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٢ (الجزائر، — ١٩٧٥) ص ٢٩ .
- ٤٨) مؤنس، حسين : تاريخ الجغرافيا والجغرافيون ، بالاندلس (معهد الدراسات الاسلامية (بيروت — ١٩٧٩) ص ١٩٦ حسين ، أحمد الياس : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى ص ١ ..
- ٤٩) الدرجيني ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ص ٣٣
- ٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣٤
- ٥١) حسين ، أحمد الياس : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى ص ٢ .
- ٥٢) — مهدي رزق الله ، أحمد، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب أفريقيا، (الرياض — ١٩٩٦) ، ص ١٤٩ .
- ٥٣) المصدر نفسه ، مجلد ٤ ، ص ٤٨
- ٥٤) نعيم قذّاح أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام، ص ٤٤
- ٥٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥
- ٥٦) جون جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ص ٦٧
- ٥٧) ، د. محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد، (بغداد — ١٩٨٢) ، ص ٨٨
- ٥٨) نعيم قذّاح، أفريقيا الغربية في ظلّ الإسلام، ص ٣٠
- ٥٩) الشماخي : : ، السير الاباضية ، ص ٢١١ .
- ٦٠) د. حسين أحمد ، أنتشار الاسلام في أفريقيا ، دور العلماء والتجار ، السودان الخرطوم ص ١١
- ٦١) يوسف فصل حسن: "تبادل التأثيرات الثقافية"، في: العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية، ص ٤٤ .
- ٦٢) طرخان ، دولة مالي الإسلامية، ص ٣٢ — ٣٩
- ٦٣) البكري ، ص ١٧٨ ، الادريسي ، ص ٥ ابن سعيد ، الجغرافيا ص ٩١٩ .
- ٦٤) الادريسي ، ص ٦ ، الدرجيني ج ٢ ص ٥١٧ .
- ٦٥) طرخان ، دولة مالي الإسلامية، ص ٣٤ .
- ٦٦) حسين ، أحمد الياس : العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي ص ٦٣ — ٧٣ — ٨٣ .
- ٦٧) البكري ، ص ١٧٨ .
- ٦٨) الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج ٢ ، ص ٥١٧ — ٥١٨ .



The Abstract Islam in Africa (MILLEY)

Islam had already spread into northern Africa by the mid-seventh century A.D., only a few decades after the Prophet Muhammad moved with his followers from Mecca to Medina on the neighboring Arabian Peninsula (٦٢٢ A.D./١ A.H.). The Arab conquest of Spain and the push of Arab armies as far as the Indus River culminated in an empire that stretched over three continents, a mere hundred years after the Prophet's death. Between the eighth and ninth centuries, Arab traders and travelers, then African clerics, began to spread the religion along the eastern coast of Africa and to the western and central Sudan (literally, "Land of Black people"), stimulating the development of urban communities. Given its negotiated, practical approach to different cultural situations, it is perhaps more appropriate to consider Islam in Africa in terms of its multiple histories rather than as a unified movement.

The first converts were the Sudanese merchants, followed by a few rulers and courtiers (Ghana in the eleventh century and Mali in the thirteenth century). The masses of rural peasants, however, remained little touched. In the eleventh century, the Almoravid intervention, led by a group of Berber nomads who were strict observers of Islamic law, gave the conversion process a new momentum in the Ghana empire and beyond. The spread of Islam throughout the African continent was neither simultaneous nor uniform, but followed a gradual and adaptive path. However, the only written documents at our disposal for the period under consideration derive from Arab sources (see, for instance, accounts by geographers al-Bakri and Ibn Battuta).

